الوقت محدود

د. حسان شمسي باشا

كتبت الدكتورة "جنى تاغلينتي" والتي تعمل في أحد مشافي نيويورك مقالا مؤثراً جداً في مجلة JAMA الشهيرة جاء فيه:

"سأبدأ بشيء يمكن أن تتعجبوا منه..

كنتُ أبدو بخير..

وجهي لا يحمل حكاية مرض.. وجسدي لا يوحي بألم..

امرأة في الأربعينات من العمر.. لم تذقْ طعم التدخين..

تعيش حياةً مطمئنة..

أمٌّ لثلاثة أطفال..طبيبة..وقلبٌ ينبض بالعطاء لمن حوله..

كنتُ أظن أنني في مأمن..

لكن بعض الأقدار لا تطرق الباب..

إنها تفتح الباب وتدخل..

قيل لي: هناك كتلة في الثدي..

وقلت لنفسي: لا بأس.. ربما التهاب..ربما شيء عابر..

فالمنطق يطمئننا أحيانًا..لكن القدر لا يستأذنُ المنطق.

جاءت الكلمة.. كلمة واحدة.. لكنها كانت كافية لتعيد ترتيب الكون من حولي: سرطان.

لا صراخ ولا انهيار..

فقط صمتٌ ثقيل.. كأن الروح توقفت لحظةً لتفهم.. ثم عجزتْ..

جلستُ في مكاني وكأن الأرض فقدت ثباتها..ثم بدأت الرحلة..

ألمٌ لمْ أكن مستعدةً له.. ليالٍ بلا نوم.. وجسدٌ يتعلم معنى الضعف لأول مرة.!

في البيت..لم أعد أنا التي تدير البيت..

بل أصبحتُ أنا.. من تُدار حياتها بلطف الآخرين..

زوجٌ يحمل عني ما لم أكن أظن أن أحدًا يستطيع حمله..

وأصدقاء ينسجون حولي شبكة من الرحمة..

وأنا..كنت أتعلم شيئًا جديدًا: أن القوة ليست أن تتحمل وحدك..بل أن تسمح لمن يحبك أن يحملك.

لكن أقسى ما في الرحلة.. لم يكن الألم..

بل الفكرة.. تلك الفكرة التي تسللت بهدوء..واستقرت في القلب دون استئذان:

ماذا لو لم أشاهد أطفالي يكبرون؟

هنا..لم يعد المرض رقمًا في تقرير..

بل أصبح سؤالًا وجوديًا..يهزّ الروح من جذورها.!

ثم جاء العلاج..

أجهزةٌ تلامس الجسم.. وأدويةٌ شفافة تسري في العروق.

جلستُ هناك..وأدركت فجأةً شيئًا لم أكن أراه من قبل:

كم أعطيتُ..وكم أخّرتُ..

كنت أحب عملي..بل كنت أذوب فيه..

أعطي المرضى..أعلّم المتدربين..

وأظن أن هذا هو المعنى الكامل للحياة.

لكن الحياة كانت تنتظرني في مكان آخر..

حين غبتُ عن عملي في المستشفى..استمر كل شيء.

العيادات فتحت أبوابها..المؤتمرات عُقدت..والأمور لم تتوقف..

حينها فهمت أن المؤسسات خُلقت لتستمر بدوننا..

أما العائلة..فلا أحد يستطيع أن يحلَّ مكاننا..

ومنذ أول يوم في الطب..تعلّمنا الصبر والتحمل..

نؤجل راحتنا.. نقايض وقتنا..

نقنع أنفسنا أن التعب فضيلة..وأن التأجيل استثمار..

لكننا لا نُخبر أنفسنا بالحقيقة كاملة أن بعض الأشياء لا تُؤجَّل..

حين يقترب الإنسان من حدّ الفناء..تنكشف له الحقائق بلا زينة.

تسقط الأولويات المزيفة.. ويصبح السؤال واضحًا، بسيطًا، لكنه حاسم :أين كنتُ.. وأين كان ينبغي أن أكون؟

أدركتُ أنَّ عملي عظيم.. نعم.

لكن وجودي في بيتي.. أعظم.

أنَّ إنقاذ الأرواح شرف..

لكن مرافقة أبنائي في حياتهم.. حياة.

أنَّ النجاح لا يُقاس بما نُنجز فقط..

بل بما نقدّم لأهلنا وأحبابنا أيضاً..

فلا يوجد إنجاز مهني يعوض مشاهدة طفلك وهو يكبر..

اليوم..أنا أقاتل بأملٍ لا ينطفئ.. وبقلبٍ تعلّم أن يرى..

لكنني لم أعدْ كما كنت..لم أعد أؤجل حياتي.

لم أعدْ أساوم على لحظاتي.

فالوقت..ليس نهرًا لا ينضب..ولا وعدًا مفتوحًا.

الوقت أمانة..والحياة فرصة لا تتكرر.

قد يحتاجنا العالَم كأطباء..

لكن هناك من يحتاجنا كآباء.. كأمهات.. كأحبّة.

وهذا الدور لا يُمكن تفويضه..ولا تعويضه..ولا تأجيله.

فإذا همس لك قلبك يومًا :سأفعل هذا لاحقًا..

فتذكّر أن لاحقًا قد لا تأتي دائمًا.." انتهى المقال (بتصرف)

وأقول: الحقيقة البسيطة التي نغفل عنها أنه يمكن استبدالك في عملك..

لكن لا يمكن استبدالك في حياة من يحبك..

فلا تنشغل بعملك عمن حولك..عن أبويك.. عن زوجك وأولادك..

فمنذ أول يوم في حياتنا العملية.. نتعلم أن نؤجل..

لكن.. هل تعلمنا كيف نغتنم فرص الحياة؟

والرسول الله ﷺ يقول:

"اغتنم خمسًا قبل خمس:

حياتك قبل موتك..

وصحتك قبل سقمك..

وفراغك قبل شغلك..

وشبابك قبل هرمك..

وغناك قبل فقرك".

فهذا الحديث ليس فقط وصايا نبوية خالدة من الحبيب ﷺ..

بل خارطة طريق للحياة.. ولسعادة الدارين..